موقف أ. د/زكي نجيب محمود
من العلمانية

إعداد

اليماني عبد العزيز الفخراني

مدرس العقيدة والفلسفة كلية أصول الدين بالقاهرة



المقـدمة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيد الأنبياء والمرسلين، سيدنا محمد ﷺ ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين.

الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود، أديب الفلاسفة وفيلسوف الأدباء، هو مفكر وفيلسوف مصري، ولد في قرية ميت الخولي التابعة لمركز الزرقا بمحافظة دمياط. المصرية في (٢٦ من ذي القعدة ١٣٢٢هـ الموافق. ١ من فبراير ١٩٠٥) (١٢ ربيع الأول ١٤١٤هـ/ ٨سبتمبر ١٩٩٣م).

عشت مع هذا المفكر وقرأت مؤلفاته في المرحلة الجامعية، وقد كررت القراءة بعد الحصول على الدكتوراه، وقد عدت مرة ثالثة إليه، وقد لفت نظري أن البيئة الثقافية التي نشأ فيها هذا المفكر كانت بيئة مليئة بالأشواك والغيوم، فقد صاحبت نشأته الفكرية غزوا فكريًا خارجيًا، من جانب عملاء الفكر الغربي ممن تربوا في لبنان على الثقافة الفرنسية العلمانية، وقد هاجر كثير من هؤلاء المفكرين العرب الغربي الثقافة والديانة إلى مصر، من أمثال: بطرس البستاني (١٨١٩- ١٨٩٣)، وجرجي زيدان -١٨٦١) (١٩١٤، ولويس شيخو (١٨٥٩- ١٩٢٧)، ويعقوب صروف (١٨٥٢- ١٩٢٧)، وشبلي شميل (١٨٦٠- ١٩١٦)، وفرج أنطون (١٨٧٢- ١٩٢٢)، وغيرهم كثير. وقد بشروا فيها بمشروعهم الفكري الاستعماري، ومن ضمن هذا المشروع الغربي الغازي بذور العلمانية، التي تنادي بالفصل بين الدين الدنيا.

وقد التقى هذا الغزو العلماني الخارجي مع مقلديه في الداخل من أمثال: أحمد لطفي السيد (١٨٧٣- ١٩٦٣)، وساطع الحصري (١٨٨٠- ١٩٦٨م)، وعلي عبد الرازق (١٨٨٨- ١٩٦٦)، وطه حسين (١٨٨٩ - ١٩٧٤)، وإسماعيل مظهر (١٨٩١- ١٩٦٢).

وقد تجلى هذا المشروع الاستعماري في مجالات عدة لعل أهمها، المقطم والمقتطف، وقد تصدى لهذه الحملة المسعورة السيد/ محمد رشيد رضا في مجلة المنار، الذي سعدت بصحبته في رسالة الدكتوراه.

وفي هذا الغزو الفكري الوافد، وما يوفره الاحتلال الانجليزي لهذا الغزو من مناخ ملائم، كانت نشأة الدكتور زكي نجيب محمود في هذا الجو الذي يبشر بالفكر الغربي العلماني الذي يدعو لأقصاء الدين عن الحياة، وفي أحسن الأحوال يترك الدين كعلاقة بين العبد وربه ووأده من ضبط. حركة الحياة، وموقف الدكتور زكي نجيب محمود من هذا الوافد هو مشكلة هذا البحث الذي يحاول حلها.فهل سار فيما سار فيه المستغربون؟أم قاوم ودافع عن الإسلام العقيدة والشريعة؟.

وفي هذا البحث يتعرض فيه الباحث للتعريفات المختلفة لمصطلح العلمانية، ويختم بتعريف خاص للدكتور زكي نجيب محمود يختلف عن التعريفات السابقة التي ذكرت، فيتضح أنه يدعو باسم الإسلام إلى الاهتمام بالعالم وبالعلم، فإن سميت هذا علمانية فلا يهمه هذا. وهذا هو موضوع المبحث الأول.

وإن عنيت ذلك مع إقصاء الدين فهذا ما يعده سخافة وجهل بالدين، وسوء نية ممن يحاول إقصاء الإسلام عن العالم وعن العلم، فقد جزم الدكتور زكي نجيب محمود بأنه لا يتصور للعلمانية بالمفهوم الغربي أن تنجح في بلد إسلامي؛ لأنها مناقضة لطبيعة الإسلام، الذي تدين به الشعوب المسلمة، ومناقضة لمفاهيمه وتاريخه وحضارته، ولا يوجد أدنى مبرر لقيامها، كما وجد ذلك في الغرب المسيحي، وهذا هو موضوع المبحث الثاني.

وفي هذا البحث أيضًا نقض بعض الشبهات التي تتهم هذا المفكر الكبير بالعلمانية دون برهان أو دليل، وقد جعلت نصوص الدكتور زكي نجيب محمود في عرض موقفه، أوفي تفنيد الشبهات عنه هي التي تتكلم، لا ما قيل عنه من خصومه أو محبيه، وهذا هو موضوع المبحث الثالث.

ثم أهم نتائج البحث، وهذا هو خاتمته، ثم أهم المراجع، والفهرس.

المبحث الأول

مفهوم العلمانية

العلمانية: مصطلح غربي النشأة كنسي المضمون، يدخل ضمن معركة المصطلحات الدائرة بين الإسلام والغرب، فهذا المصطلح تمت ترجمته من اللغة الإنكليزية، ويستعمل بمعنى الدنيوي والواقعي والعالمي... وهي نزعة فلسفية وفكرية وسياسية واجتماعية ترى العالم مكتفيًا بذاته، تدبره الأسباب الذاتية المودعة فيه، فالعالم والواقع والدنيا هي مرجعية التدبير للاجتماع الإنساني والدولة والحياة، وهنا تكمن الخطورة لهذا المصطلح، فإن الاجتماع والحياة والدولة ليست في حاجة إلى مدبر من خارج هذا العالم ومن وراء هذه الطبيعة، والإنسان مكتف بذاته يدبر شؤونه ويبدع قيمه ونظمه بواسطة العقل والتجربة، وليس في حاجة إلى شريعة تحكم هذا التدبير، وهذا يرجعنا إلى ما قبل الميلاد أيام وثنية اليونان.

فهذا المصطلح من المصطلحات السيئة المفهوم التي ابتلينا بها في بلاد الإسلام فمصطلح «العلمانية»: «هو الترجمة التي شاعت - بمصر والمشرق العربي - للكلمة الإنجليزية (Secularism) بمعنى الدنيوي، والعالمي، والواقعي- من الدنيا والعالم والواقع -المقابل- للمقدس أي الديني الكهنوتي، النائب عن السماء، والمحتكر لسلطتها، والمالك لمفاتيحها، والخارق للطبيعة وسننها والذي قدس الدنيا قداسة الدين، وثبت متغيراتها - العلمية والقانونية والاجتماعية- ثبات الدين...»[(١)].

---

(١) معجم العلوم الاجتماعية وضع مجمع اللغة العربية القاهرة ١٩٧٥م، وقاموس علم الاجتماع إشراف د عاطف غيث ط. القاهرة ١٩٧٠م، العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د محمد البهي ص ٧، ٨ ط. القاهرة ١٩٧٦م، وانظر العلمانية بين الغرب والإسلام د محمد عمارة ص ٥ ط. دار الدعوة للنشر والتوزيع ط١ ١٩٩٦م.

تقول دائرة المعارف البريطانية: مادة «Secularism» هي حركة اجتماعية، تهدف إلى صرف الناس، وتوجيههم من الاهتمام بالآخرة، إلى الاهتمام بهذه الدنيا وحدها، وذلك أنه كان لدى الناس في العصور الوسطى، رغبة شديدة في العزوف عن الدنيا، والتأمل في الله واليوم الآخر، وفي مقاومة هذه الرغبة طفقت الـ «Secularism» تعرض نفسها من خلال تنمية النزعة الإنسانية، حيث بدأ الناس في عصر النهضة يظهرون تعلقهم الشديد بالإنجازات الثقافية والبشرية، وبإمكانية تحقيق مطامحهم في هذه الدنيا القريبة. وليس في الإسلام ما يدعو الإنسان أن يترك حظه من الدنيا لحساب الآخرة، ولكن الموجود هو ألا ينسى الإنسان نصيبه من الدنيا، ويبتغي بين الدنيا والآخرة سبيلًا.

وظل الاتجاه إلى الـ «Secularism» يتطور باستمرار خلال التاريخ الحديث كله، باعتبارها حركة مضادة للدين، ومضادة للمسيحية.

ويقول (قاموس العالم الجديد لوبستر) شرحًا للمادة نفسها:

١ - الروح الدنيوية، أو الاتجاهات الدنيوية، ونحو ذلك على الخصوص: نظام من المبادئ والتطبيقات «Practices» يرفض أي شكل من أشكال الإيمان والعبادة.

٢- الاعتقاد بأن الدين والشئون الكنسية، لا دخل لها في شئون الدولة، وخاصة التربية العامة.

ويقول (معجم أكسفورد) شرحًا لكلمة: «Secular»:

١- دنيوي، أو مادي، ليس دينيا ولا روحيا، مثل التربية اللادينية، الفن أو الموسيقى اللادينية، السلطة اللادينية، الحكومة المناقضة للكنيسة.

٢- الرأي الذي يقول: إنه لا ينبغي أن يكون الدين أساسا للأخلاق والتربية.

ويقول (المعجم الدولي الثالث الجديد):

مادة: «Secularism» اتجاه في الحياة أو في أي شأن خاص، يقوم على مبدأ أن الدين أو الاعتبارات الدينية، يجب أن لا تتدخل في الحكومة، أو استبعاد هذه الاعتبارات، استبعادا مقصودا، فهي تعني مثلا السياسة اللادينية البحتة في الحكومة، وهي نظام اجتماعي في الأخلاق، مؤسس على فكرة وجوب قيام القيم السلوكية والخلقية، على اعتبارات الحياة المعاصرة والتضامن الاجتماعي، دون النظر إلى الدين.

ويقول المستشرق أربري في كتابه (الدين في الشرق الأوسط) عن الكلمة نفسها:

إن المادية العلمية والإنسانية والمذهب الطبيعي والوضعية، كلها أشكال للادينية، واللادينية صفة مميزة لأوروبا وأمريكا، ومع أن مظاهرها موجودة في الشرق الأوسط، فإنها لم تتخذ أي صيغة فلسفية أو أدبية محددة، والنموذج الرئيسي لها، هو فصل الدين عن الدولة في الجمهورية التركية[1].

ومن التعريفات السابقة يمكننا القول: إن العلمانية نشأت في أوربا - في سياق النهضة الحديثة، وهذا المعنى يفهمه جيدا الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود، وسيظهر هذا الفهم عند الحديث عن موقفه من العلمانية- وكانت من أبرز معالم فلسفة التنوير الوضعي الغربي، التي جابه بها فلاسفة عصر الأنوار في القرنين السابع عشر والثامن عشر، سلطة الكنيسة الكاثوليكية المتعصبة، بعد أن تجاوزت هذه الكنيسة الحدود التي رسمتها لها النصرانية، وهي: خلاص الروح، ومملكة السماء، فلم تدع ما لقيصر لقيصر، والإقتصار على ما لله، ولكنها ضمت قيصر وما ملكت يداه ملكا للكنيسة، ولقد تميز تياران في إطار العلمانية الأوربية، يعبر عنهما بمصطلحات مختلفه لعل أصرحهما:

١- تيار مؤمن بوجود خالق للكون والإنسان، لكنه يقف بنطاق عمل هذا الخالق عند مجرد الخلق، فيحرر الدولة والسياسة والاجتماع من سلطان الدين، مع بقاء الإيمان

---

(١) العلمانية رسالة ماجستير من جامعة أم القرى سفر بن عبد الرحمن الحوالي ص ٢١، ٢٢ بتصرف يسير.

الديني علاقة خاصة وفردية بين الإنسان وبين الله، ومن فلاسفة هذا التيار هوبر ولوك وليبنز وروسو.

٢- تيار مادي ملحد طمع إلى تحرير الحياة من الإيمان الديني، وكانت الماركسية أبرز إفرازات هذا التيار.

وقد عبر الأستاذ الدكتور/ محمد البهي أفضل تعبير عن هذين التيارين وما بينهما من تفاوت لا ينفي إمكانية تحديد طورين ومرحلتين مرت بهما (العلمانية) في الفكر الأوربي فقال: «**الأولى** - تلك التي كانت العلمانية فيها تعني: عزل الدين والكنيسة عن شئون المجتمع وسياسته ومؤسساته لحساب بناء الدولة البورجوازية، وفي سبيل دعمها..والسعي لتصفية اللاهوت المسيحي الكاثوليكي وتنقيته مما هو غير عقلاني.. من أمثال عقيدة التثليث، والطبيعة الإلهية للمسيح عَلَيهِ السَّلَامُ..والعمل على رفع الوصاية الدينية الكنسية عن التعليم، تمكينا للفطرة الإنسانية من الاختيار!.

لقد عرفت أوربا (العلمانية) بهذا المعنى، في طورها الأول، عند فلاسفة ومفكرين من أمثال: [هوبز] (١٥٨٨- ١٦٧٩م)و[لوك] (١٦٣٢-١٧١٦م) و[ليبينتز] (١٦٤٦- ١٧٢٩م).

والثانية - مرحلة (العلمانية الثورية)..التي مثلها فلاسفة ثوريون من أمثال: [فيورباخ] (١٨٠٤-١٨٧٢م) و[ماركس] (١٨١٨-١٨٨٣م) و[لينين] (١٨٧٠- ١٩٢٤م).. وهي المرحلة التي استهدفت فيها هذه (العلمانية الثورية): هدم الدين، وتخليص الاشتراكية ومجتمعاتها من تأثيره، وذلك لحساب العدل الاجتماعي-الاشتراكية، فالشيوعية-ثم السعي إلى مجتمع يزول منه الدين تمامًا، وتنمحي منه مؤسساته..فالهدف هنا-للعلمانية الثورية- ليس مجرد عزل الدين عن المجتمع، والفصل بينه وبين «الدولة»،

بل السعي - في المدى الطويل - إلى تخليص «الفرد» من الدين، وتحريره من مؤسساته[١].

ومما سبق يمكننا القول: بظهور مصطلح العلمانية على وجه التحديد في القرن السادس عشر الميلادي.. كما يظهر من تاريخ ميلاد ووفاة مفكري الغرب في هذا الوقت، من أمثال: «هوبز» و«لوك» و«ليبينتز». حيث تمرد الغرب المسيحي -المتلهف على العلم، الظمآن للحضارة والرقي، بعد أن أشرقت عليه حضارة الإسلام-من غرب أوربا- على الكنيسة.. وأعلن ثورته الإصلاحية على تعاليم الكنيسة.. التي قيدت حياته وحبستها في تعاليم كهنوتية، حالت دونهم وميادين الحياة وتطويرها ودون سبر أغوار الكون، وتسخيرها لصالح الإنسان ومتطلبات حياته.. وذلك عبر تعاليم كهنوتية أقامت قطيعة بين الله والكون، بين العلم والإيمان، بين النظرية والتطبيق، بين الروح والمادة، بين العقل والجسد، فكان الرد بالثورة العلمية الصناعية التي تمردت على الكنيسة.. وفصلت سلطانها عن مسيرة الحياة الدنيوية حيث برزت مقولة «فصل الدين عن الدولة».

وهذه حقيقة واقعة وواضحة، في عالم الغرب وفي كنيسته، اعتصم المثقف الغربي بها واعتبرها بوصلة حياته وسيره الحضاري، ومنهجه الحضاري، ولما كان ما يصلح للغرب قد لا يصلح للشرق، فلكل أمة ذاتيتها، ولكل شعب هويته وثقافته الذاتية التي يفنى في الدفاع عنها.

فقد عشق المغلوبون والمهزومون حضاريا وثقافيا وماديا مفهوم (فصل الدين عن الدولة) تقليدًا للغالب، عشقوها وطربوا لها فاتخذوها سبيلًا راشدًا، ومنهم بعض المسلمين فجعلوها أنشودتهم الحضارية الوطنية، دون أن يتأملوا واقعًا وحقيقة أخرى، لها ما يؤكدها ويصدقها وهي: أن الإسلام غير المسيحية، والمسلمين غير المسيحين، والشرقيين غير

(١) العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق د محمد البهي طبعة القاهرة ١٩٧٦م ص ١٧، ١٨، ٢٧، بتصرف وانظر: نهضتنا بين العلمانية والإسلام د محمد عمارة ط٢ دار الرشاد ١٩٩٧م ١٧، ١٨.

الغربيين، وأن الله ليس بمعزل عن العالم فهو مكونه ومدبره وحافظه، وللإسلام شريعته التي تصلح دنيا الناس في كل زمان ومكان، والتاريخ يشهد بمقدار التزام المسلمين بشريعتهم يكون تقدمهم الروحي والمادي، وبمقدار مراقبتهم لله في كل صغيرة وكبيرة من حياتهم يكون عزهم وفخرهم وسبقهم للبشرية بأسرها ونفعهم لها.

وهنا يقول الدكتور محمد عمارة: «فإذا جئنا إلى حال الإسلام وجدناه لا يعرف الدولة الدينية، ولا المجتمع المقدس؛ لأنه لا يعرف رجل الدين، ولا المؤسسات الدينية فهو ينكر الوساطة بين الإنسان وربه، ويرفض الكهانة والكهانة، ومن ثم فهو لا يحتاج لمجتمعاته كي يتطور ما يقابل هذه المعاني والأفكار والمؤسسات أي: لا يحتاج العلماني ومؤسساتها لأنه لم يشهد فكرا شرعيًا أو تطبيقًا مشروعًا - تلك الثنائية التي شهدتها أوربا الكاثوليكية، حيث نشأت (العلمانية)!»[(١)].

وإذا كانت البلاد الإسلامية ليست في حاجة للعلمانية الغربية، فإن استيرادها وتطبيقها في العالم الإسلامي يعني أمرين: أحدهما - سلخ الأمة الإسلامية من هويتها وذاتيتها، وثانيهما - فتح الباب في جدار مقاومة الأمة لكتائب الغزو الفكري والاستعماري، وفي ذلك يقول الدكتور عمارة: «ولما كانت العلمانية الغربية تعني -إذا هي طبقت في المجتمعات الإسلامية- عزل الإنسان المسلم عن هويته الإسلامية، وانفلاته من حاكمية شريعته الإلهية، وتحويل قبلة الأمة عن تراثها التشريعي والفقهي إلى حيث تصبح قبلتها القوانين الوضعية الغربية، وفلسفتها التشريعية النفعية الدنيوية، ومنظومة قيمها التي تحرر «المصلحة» من «الاعتبار الشرعي».. لما كان الأمر كذلك، كانت العلمانية الغربية من أولى كتائب الاختراق الاستعماري لعالم الإسلام وثقافة المسلمين..»[(٢)].

---

(١) نهضتنا الحديثة بين العلمانية والإسلام ص ٢٠.

(٢) الشريعة الإسلامية والعلمانية الغربية د محمد عمارة ط١ دار الشروق ٢٠٠٣م ص ٨

ويؤكد هذا المعنى أيضًا الدكتور/ يوسف القرضاوي، فبعد أن شرح مفهوم العلمانية وأنها تعني عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وإبقاءه حبيسًا في ضمير الفرد، لا يتجاوز العلاقة الخاصة بينه وبين ربه، فإن سمح له بالتعبير عن نفسه، ففي الشعائر التعبدية، والمراسم المتعلقة بالزواج والوفاة، ونحوها، وهذا المعنى بلا شك غير معروف في التراث الإسلامي: «فتقسيم شئون الحياة إلى ما هو ديني، وما هو غير ديني، تقسيم غير إسلامي، بل هو تقسيم مستورد، مأخوذ من الغرب النصراني، وما نراه اليوم في مجتمعاتنا العربية والإسلامية من تقسيمات للحياة، وللناس، وللمؤسسات، إلى ديني، وغير ديني، ليس من الإسلام في شيء»[١].

وهذه المعاني السيئة لمصطلح العلمانية والتي يرفضها الإسلام ويرفضها علماؤه، يرفضها كذلك الدكتور زكي نجيب محمود، وهنا ندخل في معركة المصطلحات، فمصطلح العلمانية بالمعنى الغربي، مرفوض عند الدكتور زكي نجيب محمود، أما هذا المصطلح في فكره الخاص به هو فليس مرفوضًا، ولا أدل على ذلك من كلماته الوجيزة التي تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب بأحرف من نور التي يقول فيها: «ما الذي يخيفني من العلمانية، فتحت عينها أو كسرت، إنه بفتحها تكون دعوة إلا الاهتمام بعالمنا الذي نعيش فيه، وبكسرها تكون دعوة إلى العلم، وكلتا الدعوتين معلنتان في عقيدة الإسلام وشريعته»[٢].

ولن أتطرق في هذا المبحث إلى ضبط. عين علمانية فقد أفاض فيه الدكتور زكي نجيب محمود.

---

(١) الإسلام والعلمانية وجها لوجه د يوسف القرضاوي مكتبة وهبة ط. ٧ ١٩٩٧م ص ٤٥.

(٢) عن الحرية أتحدث ص ١٩١

المبحث الثاني

مفهوم العلمانية ونشأتها في فكر الدكتور زكي نجيب محمود

العلمانية كلمة حديثة الاستعمال في اللغة العربية، شأنها شأن كثير غيرها من الكلمات التي غزت لغتنا، وهناك من ينطقونها بكسر العين ومن ينطقونها بفتح العين، وعلى كل حال فالعلمانية بكسر العين أو بفتحها لفظة مترجمة عن اللغات الأوربية، دخيلة على العربية، ومعناها أيضًا دخيل على لغتنا العربية، فمعناها عزل الدين عن الدولة وحياة المجتمع، وحبس الدين وقصره على العلاقة الخاصة بين العبد وربه، دون أن يتعدى دور الدين إلى إصلاح الحياة بتشريع رباني ينظم الحقوق والواجبات في دائرة الأسرة، وينظم شئون المعاملات في المجتمع، ويقيم العلاقات بين الدول على أساس من العدل والسلام، وهذا المعنى يظهر بجلاء في فكر فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة الدكتور/ زكي نجيب محمود.

(عين- فتحة - عا)

فتحت عنوان: (عين- فتحة - عا)كان حديث الدكتور زكي نجيب محمود عن العلمانية وهذا العنوان -كما يراه- يعود بالذاكرة إلى عهد الكتاتيب، ولكن عذره في اختياره مع كل ما فيه من خروج على المألوف هو كثرة ما دار في زمانه -ومازال إلى اليوم وأحيانا يتخفون تحت مصطلح الليبرالية- من أحاديث غاضبة عن «العلمانية- هجوما أو دفاعا- وسواء أكان المتحدث مهاجما أم كان مدافعا، فهناك خلاف في النطق بين كسر العين وفتحها.

فهو يرى: «أن حقيقتها هي العين المفتوحة – نسبة إلى هذا (العالم)الذي نقضي فيه حياتنا الدنيا، ولو كان المخطئون هم من أبناء هذا الجيل فقط. لقلت إنها جهالة تضاف إلى جهات، ولكن موضع العجب هو أني سمعت رجالا من ألمع الرجال الذين هم في الحقيقة ممن ينتسبون إلى الجيل الماضي.. ولست أدري كيف جاز لهم الوقوع في خطأ كهذا، وكلنا يعرف أن جيلنا الماضي كان على كثير جدا من صحوة الضمير العلمي، الذي يدفع أصحابه إلى المراجعة والتثبت من صحة ما يقولونه أو يكتبونه»[١].

ولقد نقل ما ورد في القاموس الوسيط. عن كلمة «علمانية»ما يلي: «العلماني نسبة إلى العلم (بفتح العين وسكون اللام)، وهو خلاف الديني أو الكهنوتي .ولو كان الفرق في المعنى بين أن تكون «العلمانية» مكسورة العين أو مفتوحة العين، فرقا يسيرا يمكن تجاهله، لقلنا إنه خطأ لا ينتج ضررا كبيرا، ولكن الفرق بين الصورتين في نطق الكلمة فرق لا يستهان به، مما يستوجب الوقوف والمراجعة»[٢][٣].

وهذا الخلط. بين (كسر العين وفتحها) لا يستهان به عند زكي نجيب محمود، فهو يتمنى أن لو قابل كل من ينطق مصطلح العلمانية (بكسر العين) ليصحح له النطق بهذا المصطلح وفي ذلك يقول: « كلما قرأت لكاتب في هذه الأيام، يهاجم العلمانية إذ تكون في ظنه مكسورة العين، منسوبة إلى العلم، تمنيت لو أني رأيت ذلك الكاتب جالسا أمامي، لأقول له:...لقد أخطأت الطريق يا صاحبي، فالذي تسدد إليه سهامك، ليس هو العدو الذي ظننته ولكن بينه وبينه فارقا صغيرا في الملامح، كبيرا في حساب الحقائق، فهذا الذي

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٤

(٢) القاموس الوسيط. الذي أخرجه مجمع اللغة العربية بالقاهرة عن كلمة «علمانية»(الجزء الثاني.ص٦٣٠)

(٣) عن الحرية أتحدث ص ١٨٤

تهاجمه مكسور العين، وعدوك الحقيقي مفتوحها..كان ذلك الخلط. بين صديق وعدو، هو عذري في اختيار العنوان لعله يشد انتباه القارئ، فيرهف الأذن و«يفتح العين»[(١)].

لقد نظر الدكتور زكي نجيب محمود إلى نشأة العلمانية في بيئتها الأصلية، وظروف هذه النشأة، وملابساتها، وأسبابها، التي حتمت وجودها في بيئتها، ثم نظر على ضوء دينه الإسلامي الذي يعتز به ويسكن في قلبه، ليبحث هل نحن محتاجون إلى هذه العلمانية؟. وهل تمثل بالنسبة لنا كمسلمين ذلك «التقدم»الذي مثلته في بيئتها الأوربية؟..أم أنها بالنسبة للمسلمين نبت شاذ غريب ضار ينبغي اقتلاعه من جذوره؟.

وانتهى الدكتور زكي نجيب محمود إلى أن العلمانية المفتوحة العين نبت شاذ غريب في بيئتنا العربية والإسلامية، فهي بضاعة غربية غريبة لم تنبت في أرضنا، ولن تستقيم مع عقائدنا ومسلماتنا الفكرية، وبالتالي فهي بالنسبة لنا عديمة التاريخ عديمة الأهمية، بعكس الحال عند الغربيين وفي ذلك يقول: «وما هي العلمانية (بفتح العين)؟لا أظن أن لهذه الكلمة وجودا في اللغة العربية قبل عصرنا الحديث، لكنها كلمة ترجمنا بها- في عصرنا- كلمة مقابلة لها في اللغات الأوربية، والكلمة هناك لها عند القوم أهمية وتاريخ، على عكس الحال عندنا، فقد كان ينبغي ألا تكون لها أهمية، وهي بحكم الأمر الواقع ليس لها عندنا تاريخ»[(٢)].

أسباب نشأة العلمانية في الغرب:

ثم شرع الدكتور زكي نجيب محمود في بيان مبررات ظهور العلمانية في الغرب المسيحي، فذكر منها المبررات الدينية والتاريخية والواقعية، فبين أن المسيحية تحتوي من

---

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٥.

(٢) عن الحرية أتحدث ص ١٨٦.

النصوص ما يؤيد فكرة العلمانية أي الفصل بين الدين والدنيا فقد ورد في الإنجيل: «أعط. ما لقيصر لقيصر، وما لله لله»!.

وقد وقفت الكنيسة ضد العلم والفكر، فوقفت مع الجهل ضد العلم، ومع الخرافة ضد الفكر، ومع الاستبداد ضد الحرية، وإلى هذا الواقع المخزي أشار بقوله: «أما أهميتها وتاريخها هناك، فلأن عصورهم الوسطى (التي هي الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والخامس عشر من التاريخ الميلادي) شهدت لرجال الدين سلطانا رفعوا به مثلا أعلى أمام الناس، يتمثل في حياة الرهبان، فالزهد في الدنيا لا الإقبال عليها هو ما ينبغي للإنسان الكامل أن يهتدي به، وذلك لأن عقيدتهم تسمح لهم بأن يفصلوا بين الأرض والسماء، بين الدنيا والآخرة، وفي الأولى تكون السيادة للقيصر، وفي الثانية يكون الأمر لله، ولما كان الغض من الدنيا وقيمتها ينتهي بالضرورة إلى إهمالها إهمالا يخف به وزنها في أعين الناس، وبالتالي تقل الرغبة فيها يؤدي إلى الارتقاء بشئون الحياة فيها، فلا يكون علم ولا يكون عمل إذا جاز لنا مثل هذا التعميم الجارف»[١].

فكان من نتائج سيطرة الكنيسة على عقل الإنسان الغربي الذي عاني من الاضطهاد والقتل ومحاكم التفتيش، والمذابح المستمرة بين المذاهب المختلفة في المسيحية، وجعل التدين والورع والتقوى في إهمال الحياة أن هبت رياح النهضة في أوربا كرد فعل لتسلط. الكنيسة، فكان من أبرز ما تميزت به النهضة الأوربية، التي نفرت لتقضي على هذا الوخم كله: »أن هبّ الناس وكأنهم أرادوا أن يعبوا الحياة النابضة في أجوافهم عبا، لم يتركوا طريقا للمغامرة إلا سلكوه في نشاط. محموم، فمنهم من أقلع بالسفن في بحار الظلمات ليكشف عنها ظلماتها، ومنهم من اخترق آفاق الأرض اليابسة التي كانت تتناثر إلى مسامعهم أخبارها دون أن يروها، وكأنها أرض يراها النائمون في أحلامهم، ومنهم العلماء الذين

(١) عن الحرية أتحدث ص١٨٦، ١٨٧.

اتجهوا بأبصارهم نحو السماء يتعقبون أجرامها في مسالكها، بل ومنهم الفلاسفة الذين أصروا على أن يغوصوا بتأملاتهم في طبيعة الإنسان ذاتها، ليروا ذلك العقل المتستر في عظام الجمجمة كيف يعمل، وتلك المشاعر كيف تسري رعشاتها في الجوانح، فنتج عن هذا كله بعث هو الذي خلق لهم أوربا الحديثة كما نعرفها، ومن هنا ارتفعت صيحة «العلمانية» كأنها تقول: عليكم بهذا العالم: عليكم بهذا العالم: لا تهملوه!»[(١)].

وباختصار شديد يمكن القول: إن الحياة الأوربية المسيحية تنقسم إلى ما هو ديني، وما هو غير ديني، والاهتمام بأحدهما لا يكون إلا على حساب الآخر وبالتالي فلا يمكن الجمع بينهما وهذا ما أشار إليه بقوله: «إن صيغة الحياة للأوربي في عصوره الوسطى يمكن إيجازها كما يلي: إما الدنيا وإما الآخرة ولا اجتماع بينهما، فمدينة الأرض شيء مبتور الصلة بمدينة السماء»[(٢)].

العلمانية ليست من الإسلام في شيء:

هذه ظروف نشأة العلمانية وأهميتها في العالم الغربي الذي عانى من تسلط. الدين ورجاله، فما علاقتنا كمسلمين بهذا كله؟. وإسلامنا يقوم على الإيمان بالله ورسله واليوم الآخر، ويفرض على أتباعه تكريم الإنسان وتعريفه بواجباته وحقوقه، ويخاطب العقل ويعتبر التفكير فريضة إسلامية، ويدعو إلى الاجتهاد والتجديد وبشر بمن يجدد الدين على رأس كل مائة سنة، ويدعو إلى الوسطية والتوازن والمثالية الواقعية، ويفرض الاهتمام بالتربية والتعليم والتوجيه، ويدعو الناس إلى التعارف والتعاون، ويدعو إلى التواصي بالحق والتواصي بالصبر، والتأكيد على أنه لا يوجد أحد أكبر من أن يوصىَ وليس هناك أصغر من أن يوصِي، ويحرم وجود كهنوت في الإسلام، ويدعو إلى العدل والحفاظ على

(١) عن الحرية أتحدث ص١٨٧.

(٢) عن الحرية أتحدث ص ١٨٧.

ضرورات الإنسان، وضبط. العلاقة بين الفرد والمجتمع...الخ هذا الصورة التي جاء بها الإسلام هي التي كان يدافع عنها الأستاذ الدكتور / زكي نجيب محمود في مؤلفاته.

ولذا حق له القول مندداً بما حدث في الغرب من تسلط. رجال الدين: »فما لنا نحن بهذا كله، وليس في عقيدتنا ما يدعونا إلى إهمال هذا العالم؟بل العكس هو الصحيح، فقد أمرنا بأن نحتفل بالدنيا وكأننا نعيش فيها أبدا، وأن نعمل للآخرة كأننا منتقلون إليها غدا، مالنا نحن بهذا كله، والدنيا في عقيدتنا هي الفرصة التي أتيحت لنا ليبلونا الله تعالى فيها أينا أحسن عملا؟»[١].

ثم يعقد الدكتور زكي نجيب محمود مقارنة بين السلف المتقدم الحضاري الذي ساد الدنيا بالعلم والإيمان، والخلف المعاصرين الذي فرطوا في العلم والإيمان فلا يوجد مسلم واحد لا يفخر ويفاخر بآبائه المسلمين فيما قالوه وما فعلوه خلال القرون العشرة الأولى من تاريخ الإسلام والقرون الأربعة الأولى منها على وجه الخصوص، والتي وسمها المصطفى ﷺ بأنها خير القرون، ثم ينتهي من مقارنته إلى القول:« إن الفارق الرئيس بين الفترتين إنما هو أن الأولين عنوا بالكتابين معًا: القرآن الكريم والكون العظيم، معترفا لك بأن القرآن الكريم قد ظفر منهم بالاهتمام الأكبر، مما كان ينبغي أن يؤدي بنا إلى نتيجة هامة لو كنا حريصين على أن نكون مع أسلافنا استمرارية تاريخية إيجابية وفعالة، وتلك النتيجة هي أن نعتمد إلى حد كبير على دراساتهم القرآنية لنجعل لدراسة «العلوم»الكونية فرصة أوسع»[٢].

وكأنه يدعوا المسلمين إذا كانوا حقا يريدون الفلاح في الدنيا قبل الآخرة، أن يتبعوا في الدين ويبدعوا في الدنيا.

---

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٧.

(٢) رؤية إسلامية ص ٢٢.

وحق له أيضًا أن يقول بكل فخر عن استحالة تقسيم الحياة في الإسلام فالروح ممتزجة بالجسم، والعلم ممتزج بالدين، والدولة تقوم على منهج الدين وفي ذلك يقول: «وأما صيغة الحياة عندنا فيمكن إيجازها فيما يأتي: لا بد للحياة الدنيا أن تمارس على أن تظل الآخرة هدفا أسمى، فكلتاهما خير، ولكن الآخرة خير وأبقى والآخرة خير من الأولى، فهل هناك- إذن- في حياتنا وعقيدتنا ما يدعو إلى صيحة تقول: عليكم بهذا العالم فلا تهملوه؟! فإذا كنا قد رأينا أنفسنا وقد أهملناه بالفعل، وغفونا عنه، فأخذ منا الضعف والهزال والفقر والجهل، حتى أمسك الطغاة برقابنا، فإن ذلك لم يكن ناشئا عن عقيدة تحول بيننا وبين هذا العالم، بل كان لأسباب حضارية، وهذه الأسباب هي التي يجب أن نقلعها من أرضنا اقتلاعا»(١).

فالاهتمام بالعالم جزء من حياتنا، ومقوم جوهري من مقومات تاريخنا في فترات عزه ومجده، فمن الذي يحاربه أولئك الذين ركبوا جيادهم، وحملوا فأسهم ورماحهم، ليقاتلوا «العلمانية»حتى يقتلوها؟: «أيحاربون عصر الرشيد والمأمون، الذي نشطت فيه الحياة الدنيا بقوة نبضها، والتي هي في الوقت نفسه الزهرة الحضارية والثقافية التي نشير إليها حين نريد أن نقول للناس: انظروا كيف ازدهرنا؟»(٢).

إن الصحوة الحضارية التي يشيد بها زكي نجيب محمود في عصر الرشيد والمأمون، هذا الرقي العلمي والثقافي والمادي هو نفسه يفتخر به منضبطا بأحكام الشريعة دون أن يعزلها عن الحياة، ولا أدل على ذلك من قوله: «والإسلام من حيث هو دين، له أركانه الخمسة التي يعرفها كل مسلم ويلتزمها كل مسلم، ومن حيث هو شريعة له أحكامه التي يفصلها لنا علماء الفقه، فنعتز بها أحكامًا تضبط. مناشط. حياتنا»(٣).

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٧.

(٢) عن الحرية أتحدث ١٨٨.

(٣) قيم من التراث ١٧٢.

نعتز بها أحكامًا تضبط. مناشط. حياتنا، بهذه الكلمات المضيئة تتهافت أمامها اتهامات الرجل بالعلمانية أو بالاستخفاف بالشريعة، كما سيظهر في المبحث الأخير.

وقد **يقول قائل:** إن الاهتمام بالعالم ليس موضعا للخلاف عند المسلمين، ولكن الدعاة للعلمانية في بلاد الإسلام يقصدون القضاء على الدين كمنهج للحياة؛ لأن فصل الدين عن الدولة في الإسلام يعني بقاء الدين بغير سلطان يؤيده، ولا قوة تسنده، حيث لا بابوية له، ولا كهنوت...

وإلى الخبثاء من دعاة العلمانية عبيد الغربيين، الذين يبشرون بها في بلاد المسلمين، يقول لهم الدكتور زكي نجيب محمود: «ولست أبالي إذا كان في صدور الدعاة إلى «العلمانية»(بفتح العين) في أيامنا غل وراء ستارها؛ لأنهم إن كانوا كذلك، فلنحاربهم في أشخاصهم، ولا نحارب الدعوة إلى الاهتمام بالعالم؛ لأن العالم هو مسرح العمل والنشاط. وموطن الحضارات، وإلا فأين تريدوننا أن نقيم للحضارة على أرضنا قائمة؟»[(١)].

وإذا بطل كون الإسلام مناقضا للإهتمام بالعالم، فقط. بطل كونه مناقضا للعلم، وإلا فما الفائدة من حض أول كلمة في القرآن على القراءة، وعد طلب العلم فريضة، وهنا يقول الدكتور زكي نجيب محمود: « فماذا تكون الدلالة الحقيقية لكون الأمر بكلمة (اقرأ) أول ما نزل به الوحي بالقرآن الكريم على نبي الإسلام ﷺ؟ماذا تكون الدلالة في تلك الأسبقية، إذا لم تكن حثًا على أن يكون «العلم»هو الركيزة الصلبة التي تقام عليها أركان الإسلام؟»[(٢)].

وإذا كانت مقاومة العلمانية بفتح عينها باعتبارها منصبة على الاهتمام بالعالم دون أن يكون لها أي تأثير سلبي على الدين مصيبة، فالدكتور زكي نجيب محمود يرى أن:

---

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٨.

(٢) «رؤية إسلامية د زكي نجيب محمود ط. دار الشروق ص ٦

«المصيبة أعظم فيمن يقاومونها بكسر العين؛ لأن عينها إذا كسرت، كانت الإشارة عندئذ إلى العلم وإلى الحياة التي تقيمها العلوم، فهل يرضيكم -أيها السادة- أن نزرع أرضنا بغير علم، وأن ندير مصانعنا بغير علم، وأن ننشئ مدارسنا وجامعاتنا لغير العلم، وأن نعد عدتنا العسكرية بغير العلم، هل يرضيكم -أيها السادة-أن نمحو أسماء العلماء من تاريخنا، فلا يكون فيهم بعد اليوم جابر بن حيان ولا الخوارزمي ولا ابن الهيثم ولا ابن النفيس؟وإذا رأيتم في هؤلاء وأمثالهم مواضع فخر لنا لأنهم أقاموا للعلم قوائمه، فلماذا لا تريدون لأحفادهم المعاصرين أن يعيدوا سيرتهم الأولى؟»(١)(٢).

وقد يقول قائل أيضًا: لا خلاف على أهمية العلم، فالإسلام يجعل طلب العلم فريضة على كل مسلم ومسلمة، وإنما موضع الخلاف مع العلمانيين هو في محاولتهم سلب الدين تشريعاته السماوية، وإبطال مناهجه الربانية، وبالتالي القضاء عليه، وإلى هؤلاء يقول أستاذنا الدكتور/ زكي نجيب محمود: «ومرة ثانية أقول: إنني لا أبالي أن يكون في صدور الدعاة إلى العلمانية بكسر عينها، شر مكتوم يريدون به حياتنا الدينية، على افتراض جاهل منهم بأنه إذا كان علم فلا دين! فقد ذهبت عن الناس غفلة استبدت بهم حينا طويلا من الدهر في بلادنا وفي بلاد الغرب كذلك حين لعب الشيطان بعقولهم فأوهمهم أن لا مصالحة بين علم ودين، فإذا قام أحدهما غاب الآخر»(٣).

إن مما لا شك فيه أن معجزة رسول الله ﷺ العظمى، كانت «آية علمية»تذعن لها العقول، وتطمئن إليها القلوب، وهي القرآن الكريم، الذي جعل النظر في الكون فريضة وعبادة، ونحن المسلمين أولى الناس باحترام «العلم»، وتبني العلمية في كل

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٩.

(٢) جابر بن حيان د زكي نجيب محمود سلسلة أعلام العرب٣ الجمهورية العربية المتحدة ط. مصر، وراجع أفكار ومواقف له أيضًا دار الشروق وقد أورد فيه دررا لمن يعقل.

(٣) عن الحرية أتحدث ص ١٨٩.

أمورنا، فالدين في الإسلام علم، والعلم عندنا دين، فإقامة أي صراع بين العلم والدين هو نوع من الخبل العقلي الذي جاء الإسلام لتطهير العقول منه.

وقد تنبه لهذه الحقائق الدكتور/ زكي نجيب محمود فقال: « لقد أوهمنا أنفسنا وهما «عجيبًا»، قيد خطواتنا على طريق التقدم، وهو أننا توهمنا أن ثمة تناقضًا بين أن يكون الإنسان مسلمًا بعقيدته الدينية، وأن يكون في الوقت نفسه ساعيًا إلى ما يسعى إليه أهل الغرب، من إيجاد لعلم جديد، ثم إقامة حضارة جديدة على أساس ذلك العلم الجديد. وقد كاد الأمر يكون كذلك، لو أن إسلامنا لم يجعل «العلم» وتطبيقه ركنًا أساسيًا في بنائه. وإني لأتصور أن الأمة الإسلامية، لو كانت اليوم على مثل قوتها الأولى، لكانت هي التي ملكت زمام عصرنا هذا بكل ما فيه من علوم، ومن «تقنيات». فالذي انتهى بنا إلى موقف المتسول المحروم في دنيا العلم والصناعات، ليس هو إسلامنا، بل هو أننا قد أخطأنا منزلة العلم بأسرار الكون، والانتفاع بذلك العلم في الحياة العملية.. أقول إننا قد أخطانا منزلة ذلك كله في العقيدة الإسلامية»[1].

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود قد نحى جانبا الداعين للعلمانية بمفهومها الخبيث الذي يبغي القضاء على الدين، فبقيت العلمانية -بفتح العين- في مفهومه قاصرة على الاهتمام بالعالم، فإنه أيضًا قد توجه باللوم والعتاب على المقاومين للعلمانية بكسر العين باعتبارها دعوة للاهتمام بالعلم وهذا من صميم الإسلام، فما الذي يحاربونه أولئك الذين يحاربون العلمانية وهي مكسورة العين؟.

وفي ذلك يقول: «ارجع إلى كتاب الله الكريم وإلى حديث رسوله عليه أفضل الصلاة والسلام، وانظر في كم موضع يأتي الحض على العلم، بل إننا لنعرف ذلك جيدا،

(١) رؤية إسلامية ص ٨.

ونعيده ونكرره فيما نكتبه وما نذيعه في الناس، فقل لي بالله: من ذا الذي يحاربونه أولئك الذين يحاربون العلمانية وهي مكسورة العين»(١).

وحتى لا يخرج علينا أحد من أولئك الذي يفرضون دائمًا سوء الظن بالآخرين ويحملون كلام الدكتور على غير محمله ليقولوا عنه مهما قال: هو علماني داعية التغريب في بلاد المسلمين، والتلميذ النجيب للمستشرقين، والمنكر الحقيقي للغيبات، فأراد أن يسكت هؤلاء المتنطعين فجزم بأنه لا يتصور للعلمانية أن تنجح في بلد إسلامي؛ لأنها مناقضة لطبيعة الإسلام، الذي تدين به الشعوب المسلمة، ومناقضة لمفاهيمه وتاريخه وحضارته، ولا يوجد أدنى مبرر لقيامها، كما وجد ذلك في الغرب المسيحي.

ثم خلص إلى أن العلمانية نبتة شاذة غريبة لا وجود في لغتنا لهذه الكلمة فدورانها على الأقلام -إذن- هو وهم يضاف إلى وهم، ليكتنف حياتنا وهم مركب وفي ذلك يقول: «على أنني أود أن أضيف هنا، أنه لا وجود في لغتنا- قديمها وحديثها معا- لهذه الكلمة فدورانها على الأقلام -إذن- هو وهم يضاف إلى وهم، ليكتنف حياتنا وهم مركب»(٢).

فهل يعي هذه الحقائق الكثير من العلمانيين الذي ينهلون من علم أستاذنا الدكتور زكي نجيب محمود باعتباره مفكرا علمانيا؟. وهل يكف الكثير من المفكرين وأشباههم ممن يدعون الغيرة على الإسلام فيكيلون له السباب والشتائم؟.هذا ما أرجوه!!.

إن الحياة الفكرية التي يتطلع الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود إلى العيش في رحابها، هي الحياة التي عاش فيها سلف هذه الأمة الذين أسسوا حضارة عظيمة تقوم على العلم والإيمان وتتحلى بالعدل والإحسان، هي الحياة التي لا تفرط. في ثوابت الدين

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٨٩.

(٢) عن الحرية أتحدث ص ١٨٩.

ولا تغلق الباب أمام الصالح من الحضارات المختلفة، الحياة التي لا تقيم قطيعة بين الدين والعقل، أو بين الحكمة والشريعة.

ومما يؤكد أن حلمه العيش في رحاب السلف بالمعنى الواسع لهذه الكلمة، هذا المعنى الذي جمع بين الدين والدنيا، بين الأصيل والوافد، حديثه عن القضايا التي شغلت فكرهم والتساؤلات التي كانت تشغل بالهم وعلى رأسها: «هل هناك تعارض بين ما جاء في شريعة الإسلام، من جهة، وما ورد في الفلسفة اليونانية، من جهة أخرى؟ ولم يكونوا ليجيبوا عن سؤالهم هذا إجابة عشوائية، بل جاءت إجابتهم- أو قل إجابة الكثرة الغالبة منهم- هي أنه نتيجة دراسة تحليلية دقيقة، وخلاصتها هي انه لا تناقض بين الطرفين، فما تقوله الشريعة بلغتها، هو هو نفسه ما تقوله الفلسفة اليونانية بلغتها، أعني أن الشريعة والفلسفة قد تضع كل منهما ما أرادت أن تقوله في مفاهيم تتناسب مع سياقها، لكننا إذا ما حللنا تلك المفاهيم عند هذه وعند تلك، وجدنا الحق واحد بينهما، ولا غرابة فالحق لا يتعدد»[1].

فإذا أردنا اليوم أن نصنع في حياتنا الفكرية صنيع أسلافنا فكيف يكون ذلك؟ الإجابة عند الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود واضحة وضوح الشمس، وهي السير على منهج أسلافنا حين نظروا فيما عندهم نظرة الفاحص، وفيما عند الثقافات الأخرى من أصحاب الحضارات الحديثة في الغرب وأمريكا نظرة الفاحص الدارس الذي يبحث عن الحكمة في أي مكان ليلتقطها، وفي ذلك يقول: «إن (أوربا) بالنسبة إلى أسلافنا كانت هي اليونان القديمة، وثقافة أوربا في ذلك العهد أيضا، كانت هي ما عرفه أهل اليونان من فلسفة وعلم(وكان لهم أدبهم، لكن العرب غضوا عنه النظر)فهل يتغير الموقف في جوهره، إذا كانت أوربا قد مدت أجنحتها عبر الأطلسي، ليصبح الغرب هو أوربا

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٩٠.

وأمريكا معا، ثم إذا كان لهذا الغرب في صورته الجديدة علوم ظهرت في صورة جديدة، تغاير علوم اليونان الأقدمين لست أظن أن شيئا في الموقف - مأخوذا بجوهره- قد تغير، وإذن يكون انتهاجنا نهج أسلافنا، هو أن نلتمس صيغة ثقافية جدية، يجمع فيها رحيقا إلى رحيق في إناء واحد»[١].

وهذا الجمع بين الدين والدنيا والتوفيق، بين العلم والإيمان، بين تراث المسلمين وما يتفق معه من الحضارة الغربية، بين ما عند المسلمين من رحيق وما عند الغربيين من رحيق، هو ما يطالب به الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود ولا عبرة بما يمكن أن يسمى به هذا التوفيق بين الدين والدنيا من العلمانية بعين مفتوحة فأهلا بها، وإن كان هذا هو ما يسمونه علمانية بعين مكسورة فمرحبا بها، المهم عنده المسمى لا الاسم، فهو لا يخشى أن يكون العالم موضوعا لاهتمامه في علومه وفنونه وتطبيقاته وليس في الإسلام ما يتعارض وذلك فلا تخيفه العلمانية بفتح عينها، كما أنه لا يخشى الاهتمام بالعلم لأن هذا من أهم فرائض الإسلام وبالتالي فلا تخيفه العلمانية بكسر عينها.مع تنبيهه المتكرر على استبعاد الأهداف الخبيثة التي يسعى إليها المنادون بالعلمانية، فهو يطالب ويشيد اتجاهه الفكري على إقامة الدنيا بنور الإسلام وفهم الدين بنور العلم.

ولا أدل على ذلك من كلماته الوجيزة التي تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب بأحرف من نور التي يقول فيها: «ما الذي يخيفني من العلمانية، فتحت عينها أو كسرت، إنه بفتحها تكون دعوة إلا الاهتمام بعالمنا الذي نعيش فيه، وبكسرها تكون دعوة إلى العلم، وكلتا الدعوتين معلنتان في عقيدة الإسلام وشريعته»[٢].

---

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٩١

(٢) عن الحرية أتحدث ص ١٩١.

وقد ضرب لنا الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود مثالا حيا لشخص تنطبق عليه الفكرة التي ينادي بها، من التوفيق بين الدين والحياة، وعمارة الأرض بمنهج الإسلام، والجمع بين تعاليم الإسلام وحضارة العصر، وبذلك ينـزاح عن فكرته المجردة تجريدها وعن فكرته الغامضة غموضها لعل المهاجمين له تفتح عقولهم ويكفوا ألسنتهم عنه بدعوى الغيرة على الدين.

فقد قدم نموذجا يجسد فكرته ويجمع بين الرحيقين والحسنيين وهو أحد شيوخ الأزهر الشريف وهو «الشيخ مصطفى عبد الرازق، فهو الآخر يلم بالموروث إلماما يجعل ذلك الموروث على أطرافه أصابعه، وهو في الوقت نفسه يحيط. بأهم ما دار في عقول علماء الغرب، في ميدان تخصصه، وهو لم يضع هذا إلى جانب ذاك، كما نضع مصوغات الذهب إلى جوار مصوغات الفضة في صندوق، بل مزج الجانبين في نفسه وتكون له من المزيج منهج ورؤية وتصور فهل هذه الوقفة المتزنة تدرجه في «علمانية» مفتوحة العين أو مكسورتها. بالمعني السيئ الذي يهاجمه المهاجمون، إنني - حقا وصدقا - لا أدري»[1].

ولقد تلقى هذا المفكر العظيم الكثير والكثير لا لشيء إلا من سوء الفهم والتأويل المغلوط. لكلامه، وحمل كلامه على الأسوأ وخاصة من أصحاب التدين المغشوش، وعن هؤلاء يقول: «ولقد أنباني من أنبأني أن كاتبا مصريا من هؤلاء المجاهدين، قد ذكرني في صحيفة عربية.. فقال عني أنني واحد من هؤلاء العلمانيين وليتني أسمع منه ما يوجهني إلى موضع الخطأ مني لأصححه، أهو أني ألممت بأطراف من موروثنا وبأطراف من نتاج العصر ومزجت الجانبين معا في صيغة واحدة، لو كان الأمر كذلك، إذن فهو تشريف لا أستحقه ومكانة لا أدعيها»[2].

(١) عن الحرية أتحدث ص ١٩٢، ١٩٣.

(٢) عن الحرية أتحدث ص ١٩٢.

وكما ترى فالرجل مؤدب غاية الأدب لم يشنع على مذهب كما لم يتنكر لأحد، وإنما كان حريصا كل الحرص أن يكون المدافعون عن «العلمانية»والمهاجمون لها من العارفين عن أي شيء يدافعون أو يهاجمون، أو أن يرشدوه لما يرونه خطأ في فكره ليرجع عنه.

خطاب من مجهول:

جاء في بريده: [خطاب مجهول] يحوي سؤالا يقول فيه صاحبه: «إنك تحاول جاهدا أن تقول إننا إذا أردنا لأنفسنا البقاء، مشاركين في حضارة العالم بما نضيفه إليها «كما كان شأننا في الماضي «فلابد لنا من مزج تراثنا، أو -على الأقل- من تطعيمه- بثقافات الآخرين، وبثقافة الغرب على وجه الخصوص، فإذا لم أكن أخطأت الفهم عنك، فأنا مؤيدك في حملتك ابتغاء التجديد، لكنني في حيرة، كيف يمكن تحقيق هذا الحلم؟إن تراثنا إسلامي في الأساس»[١].

وأخذ صاحب الرسالة يضرب الأمثلة، من العقيدة والشريعة، والتي التبست عليه بحيث تشوش فهمه واحتار فكره، بحيث أصبح عنده خلل في تفكيره، أدى به إلى إقامة قطيعة بين الإسلام وثقافة العصر، فأصبح لسان حاله يقول: إما إسلام وإما ثقافة هذا العصر وحضارته، أما أن يتلاقى الاثنان فضرب من اجتماع نقيضين لا يجتمعان، ولم يعد يرى كيف يتحقق له هذا الاجتماع بين الإسلام وثقافة العصر.

وللأسف ليس هذه المشكلة خاصة بصاحب الخطاب وحده؛ بل هي تعم كثير من الناس وخاصة من هؤلاء الذين تعلموا وتربوا على ثقافة الغرب، ومدارس الغرب، وحياة الغرب، ومازال عندهم حنين لماضيهم وتراثهم، ومحور الخطأ عندهم، تلك الفكرة الباطلة التي كأنما أصحابها يريدون أن يقولوا: إما إسلام وإما هذا العصر بكل علومه وتقنياته، وهي فكرة شاعت حتى أصابتنا بما يشبه الشلل، مع أنهم لو تأملوا في تاريخهم

(١) عن الحرية أتحدث ص ٢٢٦.

العظيم، وفي سيرة أسلافهم، لعرفوا وتعلموا منهم كيف أقاموا حضارة عصرهم وبناء مجدهم، على العلم والإيمان، في دولة العدل والإحسان، فساروا على نهج أسلافهم في بناء الدنيا بتعاليم الإسلام، وساروا في الأرض وتفكروا في خلق السماوات والأرض، ونظروا إلى الآيات الربانية في الأنفس والآفاق، وعلموا أن الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَىٰ ما خلق شيئًا باطلا، وتوصلوا إلى أنه ليس في كل مقومات عصرنا الأساسية شيء يأباه الإسلام عقيدة، وشريعة، وهذا ما يؤمن ويطالب به الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود.

ثم فرض مثالين يدلل ويؤكد بهما على استحالة وجود صدام بين الدين الإسلامي والحياة، وأن الأخذ بالنهضة العلمية لا يمكن أن يكون على حساب الدين، وأن التدين الحقيقي لا الزائف هو الداعي للتقدم والنهضة، وبالتالي فإذا جاء صاحب النهضة ودخل في الإسلام لن يجد في الإسلام ما يعيق تقدمه أو يهدم حضارته.

وفي ذلك يقول لصاحب الخطاب المجهول ومن على شاكلته: « اختر لنفسك من تشاء من رجال الثقافة في بريطانيا، بحيث تراه مجسدا بشخصه لروح هذا العصر الذي نعيش فيه، ثم افترض أن من اخترته قد اسلم.. فما الذي يتغير في موقفه «العصري» بسبب إسلامه؟.. فإذا وجدت أن المثقف العصري الذي اخترته لن تنتقص عصريته تلك مقدار شعرة بسبب إسلامه، كان معنى ذلك أنه لا تعارض بين عقيدة المسلم وبين رؤية عصرية يتخذها لنفسه.. إن المسلم بإسلامه يؤمن بان الله أحد وبأن الله صمد، وهذا التوحيد هو صميم الرسالة الإسلامية، فهل تقف عقيدة التوحيد حائلا بين المؤمن بها وبين الرؤية العصرية؟»[1].

وقد كان الدكتور زكي نجيب محمود على علم تام بأن الإسلام لا يكتفي بالتغني بالماضي وحضارته الزاهرة، ولكنه يعمل على إبداع حضارة إسلامية معاصرة، تأخذ من

---

(١) عن الحرية أتحدث ٢٢٩.

حضارة اليوم أفضل ما عندها، من عناصر العلم والتكنولوجيا، مع احتفاظها بأصالتها وخصائصها، وبالتالي -وهذا هو الفرض الثاني- فإن من بلغ أعلى المراتب العلمية وأخص التخصصات الدقيقة في مجاله العلمي من أبناء المسلمين يكون قد جمع نورا على نور، نور القيم المستمد من الإسلام ونور الحضارة المنتقى من التقدم العلمي.

ولذلك لا عجب في إشادته بفضيلة الإمام الأكبر فضيلة الشيخ / مصطفى عبد الرازق كأحد أبناء المسلمين الذين استفادوا من الحضارة الغربية، فارتفع مستوى تفكيرهم وفهموا من الإسلام ما لم يستنبطه غيرهم، وفي ذلك يقول في شأن أمثال الإمام الأكبر، والأستاذ الدكتور الإمام محمد عبد الله دراز وغيرهم..: «والآن فاعكس الاتجاه واختر من شئت من المسلمين الذين عرفوا بتشربهم للثقافة الغربية، وانظر في عمق على ما قد طرأ عليهم من تغير بسبب تلك الثقافة ثم قل لي بعد إمعان النظر إذا كان إسلامهم قد اهتز، لا، بل إني لأجد نقيض ذلك تماما، وهو أن التزود بثقافة الغرب من شأنه - على الأرجح- أن يفيد صاحبه في عمق نظرته إلى الإسلام قد يؤدي به إلى فهم لا يتاح مثله لمن لم يتسع أفقه بمقارنة الثقافات بعضها ببعض، فكثيرون جدا هم علماء الإسلام في عصرنا هذا الذين نالوا درجاتهم العلمية في جامعات الغرب، ولم يكن ذلك ليؤثر فيهم إلا بأن ازدادوا بإسلامهم وعيا ولإسلامهم فهما، وذلك كله لأن الإسلام وثقافة العصر ليسا نقيضين»[١].

الإسلام وثقافة العصر ليسا نقيضين، هذه كلمة تكتب بماء الذهب على صفحات القلوب بأحرف من نور من فيلسوف الأدباء وأديب الفلاسفة زكي نجيب محمود، الذي تشرب ثقافة الغرب وتشرب ثقافة الإسلام فازداد نوارا على نور، مما جعله ينطق بالحكمة، فيرى أن الإسلام هو مجمل الأخلاق الحسنة، التي قد تكتسبها كبار النفوس

(١) عن الحرية أتحدث ص٢٣٠، ٢٣١

ولو كانت من غير المسلمين، وقد يفقدها الكثيرون من المحسوبين على الإسلام، وهنا يستحضر المعاني الغزيرة في: « قول الإمام محمد عبده، عندما زار انجلترا، بما معناه: لقد تركت في بلدي إسلاما بغير مسلمين، وجئت هنا لأجد مسلمين بغير إسلام، فالإسلام مبادئ أخلاقية، قد يتخلق بها الإنسان إذا أحسنت تربيته، دون أن يكون في عقيدته مسلما، والعكس وارد أيضا، وهو أن يكون الإنسان بعقيدته محسوبا على الإسلام دون أن يعلو بتربيته إلى ممارسة المبادئ الأخلاقية التي يدعو إليها الإسلام»(١).

وقد تناول الدكتور زكي نجيب محمود تلك الفكرة التي تفند الصراع بين الدين والدنيا، بين العلم والإيمان، في العديد من مقالاته(٢) المبثوثة مثل: «ثنائية السماء والأرض»وفيها يرى ضرورة بناء فلسفة عربية إسلامية تزيل التناقض المزعوم بين السماء والأرض و«ياقوتة العقد للعلم والعلماء»وفيه يفخر بالعقد الفريد لابن عبد ربه ومنهجه العقلي في التفكير وسطوع العلم من بين صفحات الكتاب، وهذا ما كان ينادي به طيلة حياته.

ثم شرع الدكتور / زكي نجيب محمود بعد هذا التمهيد الذي يوضح من خلاله عدم التعارض بين الإسلام والتقدم العلمي والذي في الحقيقة هو الداعي للعلمانية إلى المشكلة التي أرقت صاحب الرسالة وغيره ممن يعتقدون مثله بالقطيعة بين الإسلام والحياة، والخطأ الذي سبب له هذه المشكلة وأدى به للحيرة واهتزاز العقيدة، هو في الخلط. بين رسالة «الأخلاق»ورسالة «العلم «خلطا جعله يتوقع من الأولى أن تتحدث باللغة التي تتحدث بها الثانية: «ولو أنه فرق التفرقة الواضحة بين المجالين، لما وجد ما يدعو إلى حيرة، فضلا عن أن يجد ما يدعو إلى التشكك في العقيدة، فالعلم تجريبي، يصحح نفسه بنفسه عصرا بعد عصر، والعقيدة التي تحمل في طيها رسالة خلقية، مطلقة لا تتغير بتغير

(١) عن الحرية أتحدث ص ٢٣٠.

(٢) تجديد الفكر العربي ٢٥٧، ٢٨٨

الزمان والمكان، وإن تغيرت مواقف تطبيقها، وإذا لجأ العلم إلى «رموز» تضبط. له معانيه، كانت هي رموز الرياضة أو ما يشبهها، وأما إذا لجأت العقيدة الأخلاق إلى رموز توضح معانيها، كانت هي رموز البلاغة في التصوير والتوضيح وأقول ذلك لأنك- والخطاب موجه إلى صاحب الخطاب - قد أردت- في الأمثلة التي سقتها-أن تفهم لغة العقيدة الأخلاقية على الأساس الذي تفهم به لغة الفيزياء والكيمياء، فوقعت في حيرتك وما هو بعد الحيرة »[(١)].

وبهذا فلا يدع الدكتور زكي نجيب محمود مجالا للسؤال عن كيفية الجمع بين التراث- والإسلام أساسه- وبين حضارة هذا العصر وثقافته،، واعتبار ذلك المطلب «حلما» لا سبيل إلى تحقيقه، بعد أن حسم الأمر بعدم استحالة أن تجتمع «أخلاق»- باعتبارها خلاصة رسالة الإسلام - من هنا إلى «علوم «من هناك؟.

فمفتاح الطريق إلى الصواب هو هذه التفرقة..فالعلم علم كائنة ما كانت عقيدة من يتلقاه: تلقته اليابان بعقيدتها البوذية فكان منها ما كان، وتلقته اليهودية والمسيحية ممثلين في أشخاص المتدينين بهما في الغرب فلم تحل العقيدة الدينية دون أن يقيم هؤلاء من صروح العلم ما أقاموه..وهذا ما كان عليه أسلافنا حين سارعوا إلى التقاط. النافع لدنياهم مهما كان موطنه، مع الاحتفاظ التام بالإسلام، وهذا ما ينبغي أن نكون عليه، وهو ما نتطلع إليه، وما ذلك على الله بعزيز.

---

(١) عن الحرية أتحدث ص ٢٣٠، ٢٣١ .وراجع «عربي بين ثقافتين «زكي نجيب محمود فموضوعه يعالج تلك الثنائيات التي يتوهم منها علمانية الرجل وهو منها براء ط. ٢ دار الشروق ١٩٩٣م، وكذلك باقي مؤلفاته والتي منها: الشرق الفنان د زكي نجيب محمود ط. دار القلم وزارة الثقافة والإرشاد القومي، حياة الفكر في العالم الحديد د/ زكي نجيب محمود ط. دار الشروق ١٩٥٦م، -قصة عقل د زكي نجيب محمود ط. ٢ دار الشروق ١٩٨٨م، قشور ولباب د زكي نجيب محمود ط. دار الشروق

المبحث الثالث

شبهة علمانية زكي نجيب محمود

مما سبق يتضح لنا أن الدكتور زكي نجيب محمود يرى أن التزود بثقافة الغرب من شأنه - على الأرجح- أن يفيد صاحبه في عمق نظرته إلى الإسلام قد يؤدي به إلى فهم لا يتاح مثله لمن لم يتسع أفقه بمقارنة الثقافات بعضها ببعض، فكثيرون جدا هم علماء الإسلام في عصرنا هذا الذين نالوا درجاتهم العلمية في جامعات الغرب، ولم يكن ذلك ليؤثر فيهم إلا بأن ازدادوا بإسلامهم وعيا ولإسلامهم فهما، وذلك كله لأن الإسلام وثقافة العصر ليسا نقيضين، هذا كلام الرجل تأمله عزيزي القارئ.

وتأمله ما يقول البعض-ممن ينتسب للسف- من افتراءات عليه والتي منها: »ولكن الدكتور زكي نجيب محمود لا يلبث أن ينتقص من شأن هذه الشريعة ويصفها بأنها قاصرة ومجافية للعصر ويطالب بتخطيها في سبيل تحقيق المعاصرة، وهو يقبل بالحضارة الغربية كما كان يقبل بها سلفه طه حسين (حلوها ومرها وما يحمد منها وما يعاب)فما عرف عنه أنه دعا المسلمين إلى أخذ العلوم مثلًا دون أسلوب العيش، ولكنه يدعو إلى شيء غريب هو أن المسلمين ليس لهم فلسفة حياة وهو ادعاء باطل وظالم»[(١)]..

ولكن الدكتور زكي نجيب محمود لا يلبث أن ينتقص من شأن هذه الشريعة، هكذا يدعي هذا دون أن يستشهد بنص واحد من كلام الدكتور زكي نجيب محمود على ما يدعيه، بل الذي أثر عنه هو العكس، فالشريعة عنده صنوان العقيدة، كلاهما وحي من عند الله تعالى، وفي ذلك يقول: « فالقرآن الكريم إنما نزل مع الوحي كتابًا فيه عقيدة وشريعة»[(٢)].

---

(١) أعلام وأقزام في ميزان الإسلام د/ سيد العفاني دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع ١/ ٢١٨

(٢) رؤية إسلامية ٩٣

إن الدكتور زكي نجيب محمود لم يستهن بالشريعة قط. كما يدعي الذين يتهمونه بالعلمانية، بل الشريعة عنده وحي من الله تعالى مثل العقيدة، وليس هذا فحسب؛ بل إنه يحترم ويقدر التراث الفقهي والخلافات المذهبية المدونة لأصحاب المذاهب الفقهية، لدرجة أنه حاول أن يستنبط. الوجه الجامع بين تلك المذاهب، كما حاول تقديم فلسفة الاختلاف بين هذه المذاهب، فكتب يقول: «إننا نرجح أن يكون ذلك راجعًا للبيئة المحلية في كل حالة، مضافًا إليها مؤثرات التاريخ في كل قطر اختلفت ظروفه عن الظروف في سائر الأقطار.لكن هذه الاختلافات كلها والتقسيمات كلها احتفظت وراءها بأساس واحد مشترك، يكون به المسلم مسلمًا، وهو الإيمان بالوحي القرآني على محمد-عليه الصلاة والسلام- وأن هذا الأساس المشترك، لهو من الضخامة بحيث يكفل للمسلمين جميعًا وحدة تغرق في ظلها كل ضروب التفرع والتشعب والانقسام»[(١)].

هذه نظرته للمذاهب الفقهية التي تفهم الشريعة من خلالها، والتي تستمد اجتهاداتها المختلفة من معين الوحي، فكيف يتهم بالعلمانية التي تقصي الشريعة من الحياة؟؟

وأقل ما يمكن أن يقال لهذا المفتري الذي يعد الأستاذ الدكتور زكي نجيب محمود من جملة الأقزام، أين ما تدعيه في مؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود؟.ألا ينبغي أن تأتي بنصوص الرجل تشهد لكلامك؟

هل يمكن بعد ما سبق ذكره في الصفحات السابقة أن يتهم الدكتور زكي نجيب محمود بمعاداة الشريعة؟أو بوقوفه في صف العلمانيين اللادينيين؟ أو الدعوة للقطيعة بين الماضي والحاضر؟ أو يمكن اتهامه بالسعي لسلخ الأمة من دينها؟.

---

(١) رؤية إسلامية ص ٨٠.

للأسف الشديد هذا ما اتهمه به البعض وهذا قول بعضهم على لسان الدكتور زكي نجيب محمود زورًا وبهتانًا: «...فيقول: إن العودة إلى الشريعة الإسلامية رجعية، فالعلمانيون الذين لا يؤمنون بالغيب مجددون، والمؤمنون الذين يصلون الماضي بالحاضر رجعيون، فالعودة إلى المنابع رجعية والتقدمية هي الانسلاخ من القيم الخلقية وهذه مفاهيم معكوسة»[١].

وهنا من حقي التساؤل أين في مؤلفات الرجل قوله: إن العودة للشريعة رجعية؟. وأين قوله: إن العلمانيين مجددون؟ وأين قوله: إن المؤمنين الذين يصلون الماضي بالحاضر رجعيون؟أين قوله: إن العودة إلى المنابع رجعية؟.أين قوله: إن التقدم هو الانسلاخ من القيم الخلقية؟.

ولكنها اتهامات ورثوها عن بعض بتقليد أعمى دون تفكير، فها هو الشيخ سليمان بن مفرج القوسي يقول: « الدكتور زكي نجيب محمود: أحد أبرز أعلام العلمانية المعاصرين، وأحد كبار دعاة التغريب في عالمنا الإسلامي المعاصر.سعى في عملية «التغريب» التي يدعو إليها إلى ضرورة اقتلاع الجذور الإسلامية واستبعادها وإحلال المبادئ العصرية الغربية محلها، مدعيًا- على سبيل المغالطة- إنه بهذا الصنيع يكون متبعا لمنهج الأسلاف، وأن مقصوده أن يكون خير خلف لخير سلف، فنراه يقول: «انتهيت إلى نظرات في التحول من قديمنا إلى الحديث بأنه لا تحول إلا إذا بدأناه من الجذور؛ نقتلعها لنضع مكانها مبادئ أخرى»[٢].

الرجل يدعو إلى الاهتمام بعالمنا الذي نعيش فيه، كما يدعو إلى العلم، وكلتا الدعوتين معلنتان في عقيدة الإسلام وشريعته، فالرجل يجمع رحيقا من هنا إلى رحيق من هناك،

---

(١) أعلام وأقزام ١/ ٢٢٥.

(٢) الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية د/ سليمان بن مفرج القوسي ص ٣٨٤.ط. دار الفضيلة وانظر تجديد الفكر العربي ص٢٠٤.

فكيف بمن يجمع إلى رحيقنا رحيقا من الآخر أن يتهم بالدعوة لقبول الإباحيات والتحلل الغربي؟ هذا للأسف ما يتهم به هذا المفكر العظيم من قبل أشباه المفكرين ومنهم الذي يقول: «وكيف يقبل وهو العقلاني الحصيف هذا المنهج الذي يعيشه الغرب سواء الغرب الليبرالي أم الماركسي في ذلك الخضم العفن الفاسد المتآكل من الشهوات والإباحيات والانحراف والتحلل والغرابة بشهادة كتاب الغرب والشرق على السواء»[١].

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود قد قال: إن «أوربا» بالنسبة إلى أسلافنا كانت هي اليونان القديمة، وثقافة أوربا في ذلك العهد أيضا، كانت هي ما عرفه أهل اليونان من فلسفة وعلم، وكان لهم أدبهم، لكن العرب وخاصة في عهد العباسيين غضوا عنه النظر، فهل يتغير الموقف في جوهره، إذا كانت أوربا قد مدت أجنحتها عبر الأطلسي، ليصبح الغرب هو أوربا وأمريكا معا، ثم إذا كان لهذا الغرب في صورته الجديدة علوم ظهرت في صورة جديدة، تغاير علوم اليونان الأقدمين فهل يظن شيئا في الموقف قد تغير، وبالتالي فما علينا إذا انتهجنا نهج أسلافنا، بالتماس صيغة ثقافية جدية، يجمع فيها رحيقا إلى رحيق في إناء واحد، فهل من هذه دعوته وهذا مشروعه الفكري لنهضة أمته يتهم بالدعوة للاغتراف من ثقافة الغرب بغير حساب؟.وإذا اتجهت قبلة العلوم لليابان والصين ألم يكن زكي نجيب محمود سيوجهنا نحوهما؟ الحكمة ضالة المؤمن.

للأسف الشديد هذا ما اتهم به الدكتور وفي ذلك يقول أصحاب هذا الاتهام: «أما قول الدكتور زكي نجيب محمود أن الثقافة الإسلامية في العصر العباسى قد اغترفت ثقافات الدنيا بغير حساب فهو قول باطل. لقد وقفت الثقافة الإسلامية موقف التحليل والغربلة لكل ما ترجم، وأخذت منه ما وجدته صالحًا ومطابقا لمفهوم التوحيد

(١) أعلام وأقزام ١/ ٢١٨

الخالص. أما ما عدا ذلك فقد رفضته وشنت عليه حربا عنيفة، وأخرجت دعاته من طريق الفكر الإسلامى فأطلقت عليهم اسم «المشاؤون المسلمون» إعلانا لتبعيتهم للمشائين اليونانيين، ولم تقبل منهم ما جاءوا به»[١].

وأقل ما يقال لهذا وأمثاله: إنكم لا تعرفون معنى اقتباس الرحيق فقط. من الغرب، ولا تميزون أساسًا بين الصالح والطالح، يا من زلتم تحرمون الصور الفوتوغرافية إلى الآن إذا ذكر العلم فاصمتوا!.

وإذا كان الدكتور زكي نجيب محمود يدعو إلى الموائمة بين الدين والدنيا، بين العلم والدين، وهذا هو جوهر الإسلام، مما جعله يرفض العلمانية في بلاد المسلمين، فإن هناك من يحكم على هذه المواءمة بالرفض وفي ذلك يقول: «كذلك، فإن نظرية زكي نجيب محمود بالتوفيق بين المترجم الوافد الغربي وبين المجدد من التراث الإسلامي «وهو ما يسميه بالعربي استنكارًا» هذه نظرية ليست متسحدثة.. ودعوى زكى نجيب محمود بالمواءمة مرفوضة. فالمسلمون على استعداد التضحية بالتقدم المادي في سبيل الاحتفاظ بالقيم الأساسية»[٢].

ويستمر الدكتور سيد العفاني باتهام الدكتور زكي نجيب محمود باستيراد القيم الغربية المنافية للقيم الإسلامية مع استيراد التكنولوجيا، وذلك في قوله: «إن زكي نجيب محمود يخطئ حين يدعو المسلمين إلى أخذ التكنولوجيا والعلوم الحديثة مفروضة مع فكرها»[٣].

(١) أعلام وأقزام ١/ ٢٢١
(٢) أعلام وأقزام ١/ ٢٢١
(٣) أعلام وأقزام ٢٣٣

وللأسف الشديد كل هذه الاتهامات لم يقم عليها صاحبها دليلا واحدا من مؤلفات الرجل، وقد تصفحت كل مؤلفات الرجل ولم أعثر على ما يدعيه الدكتور سيد العفاني؛ بل الثابت في مؤلفات الرجل ينطق بتفنيد كل هذه الشبهات، ومن ذلك قوله:«... إذن تخرج لنا نتيجة واضحة من هذا الذي ذكرناه، وهي وجوب أن نأخذ -أعني العالم الإسلامي- بكل ما يمكن أخذه من مشاركة فعالة في بناء عصرنا.ولما كان الاحتمال قليلا بأن نستطيع إثبات وجودنا بما تستحقه أمتنا من وزن في دنيا العلوم والتقنيات، فهنالك جانب هو موضوع رسالتنا في حياة العصر، وأعني جانب النقص الملحوظ في الحياة العصرية؛ إذ حصرت نفسها في «الواقع» وغضت النظر عما بعد هذا الواقع، فحدث ما حدث من علل أفقدت الإنسان المعاصر توازنه، وهنا تأتي رسالة الإسلام لتضيف إلى حياة عصرنا ما قد نقص فيها»[١].

لم يقل الرجل بأخذ كل ما صدر عن الغرب، فالرجل يميز بين القيم والأخلاق وهوية الأمة التي نحتفظ بها، وبين ما أنتجه الغرب من تقنيات وعلوم طبيعية، هي من جملة أسرار الله في كونه يستخرجها من يجتهد ويستحقها، فالرجل يدعو إلى مشاركة فعالة في بناء العصر.

وإذا كان حتما علينا أخذ الحكمة أنى وجدنا كما يأمرنا ديننا، فإنه حتما علينا أيضًا أن نسد الخلل في تاريخ البشرية ونردها عن جنوحها المادي إلى روحانية الإسلام وهدايته لنضيف إلى حياة عصرنا ما قد نقص منها، هذا كلام الرجل ينطق بعكس ما رماه به الخصوم الذين يرمونه بالعلمانية دون برهان، هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين.

(١) رؤية إسلامية ص ١٠.

هؤلاء يقيمون قطيعة بين الإسلام وحضارة اليوم، وللأسف هذا باسم الإسلام، ولا حول ولا قوة إلا بالله، ولم يكتفوا بهذا بل اتهموه بالسخرية من الشريعة، ففي تلخيصهم لفكر الرجل تأمل هذا الافتراء غير المصحوب بما يؤكده من مؤلفات الرجل ففي المبدأ السادس الذي يلخصون فيه فكر الأستاذ الدكتور زكي نجيب يقولون: «سادسا: السخرية من الشريعة الإسلامية واعتبار قطع اليد أمرًا وحشيا يهدد كرامة الآدميين مع عدم فهم الحقيقة من وراء ذلك وهي الحيلولة دون وقوع جريمة السرقة»[1].

وأقل ما يمكن أن يرد به على تلك الترهات وتلك الافتراءات وهذا البهتان الذي يرمون به هذا المفكر العظيم، هو ما كتبه هذا المفكر العظيم وأكد به إيمانه العميق بالإسلام عقيدة وشريعة عبادة وأخلاق، وذلك في قوله: «..فالدين منظومة من العقائد والشرائع والعبادات والمبادئ، يتكون منها خطة حياة هنا في هذه الدنيا، وتمهد للحياة الآخرة يوم يكون الحساب، وتلك المنظومة الدينية إذا ما أرسلت قواعدها في حياة الناس، فهي إنما تصبح ركيزة إيجابية - بل أهم الركائز الإيجابية جميعًا - فتضاف إلى ما عند الناس من علوم وفنون وآداب وأعراف وتقاليد وغير ذلك من مقومات المجتمع»[2].

إذا كان الدين في فكر الأستاذ الدكتور/ زكي نجيب محمود عبارة عن منظومة من العقائد والشرائع والعبادات والمبادئ، يتكون منها خطة حياة هنا في هذه الدنيا، وتمهد للحياة الآخرة يوم يكون الحساب، فإن الإنسان هو خليفة الله تعالى في أرضه الذي يطالب بتطبيق منظومة العقائد والشرائع والعبادات والقيم والمبادئ على الأرض.

---

(١) أعلام وأقزام ١/ ٢٢٦.

(٢) قيم من التراث ص ١٢٢.

ولا أدل على ذلك من قوله:«ونذهب إلى غربي أوربا -فرنسا وألمانيا- فنجد الفلسفة هناك معنية بالإنسان على طريقة خاصة، إذ تكاد تجعل من الإنسان إلهًا على الأرض، تتعارض حريته المطلقة مع وجود الله، فنقول لهم عندئذ: لا، إننا نسايركم في اهتمامكم بالإنسان، لكننا بدل أن نجعل منه إلهًا كما تفعلون، نجعله رسولًا في الأرض لله، يشيع فيها ما قد شرعه له من قيم ومبادئ»[١].

إن من يتهمون الرجل تلك الاتهامات الساقطة لم يكلفوا أنفسهم قراءة ما كتبه الرجل، وبأدنى تأمل لما كتبه الرجل في «تربية الضمير الديني» ضمن كتابه (قيم من التراث)، أو كتابه القيم (المعقول واللامعقول في تراثنا الفكري) وغيرهما الكثير، لما كتبوا ما كتبوا لو كانوا يفقهون.

(١) تجديد الفكر العربي ص ٢٨٦.

الخَاتِـمَة

وفي نهاية هذا البحث الوجيز يمكن تلخيص أهم نتائجه كالآتي:

١- الدكتور زكي نجيب محمود من كبار المفكرين الإسلاميين المستنيرين بنور الإسلام نظريا وتطبيقيا، ناله ما ناله من اتهامات تداولت بين الباحثين دون نظر أو نقد، الأمر الذي حرمه من مكانته بين المفكرين الإسلاميين لعدة عقود أذن الله تعالى أن يأخذ بعض حقه.

٢- العلمانية مصطلح غربي النشأة والمضمون، يسعى في هدم الإسلام، وأقل أضراره أنه يحجب الإسلام عن ضبط. مناشط. الحياة.

٣-إعلان الدكتور زكي نجيب أن العلمانية إذا كانت مرادفة للعالم، فإن الإسلام جعل النظر في العالم فريضة لاستخراج قوانينه وفهم أسراره.

٤- إعلان الدكتور زكي نجيب محمود أن العلمانية إذا كانت مرادفة للعلم، فإن الإسلام هو دين العلم، فالعلم في الإسلام دين، وأول كلمات الوحي ﴿ ٱقْرَأْ ﴾ وثاني سوره ﴿ ٱلْقَلَمِ ﴾.

٥-إعلان الدكتور زكي نجيب محمود أن العلمانية بالمفهوم الغربي مرفوضة تماما في نظر الإسلام وفي بلاده.

٦- انتهاء الثنائية بين السماء والأرض، بين العقيدة والشريعة، بين الدين والحياة، فكلمة السماء هي لهداية الأرض، والعقيدة هي الروح التي تتخلل الشريعة، والدين هو المنظم لشئون الحياة.

٧- مؤلفات الدكتور زكي نجيب محمود تنطق بتفنيد شبهة علمانية، وأصحاب هذه الشبهة حجتهم داحضة، ويتبعون الظن الذي لا يغني من الحق شيئًا، فلا حجة عندهم من مؤلفات الدكتور تؤيد مذاعمهم.

أهم المراجع

- القرآن الكريم.

- البهي د/ محمد البهي.

١ – العلمانية والإسلام بين الفكر والتطبيق ط. القاهرة ١٩٧٦م.

- الحوالي د/ سفر الحوالي.

٢ – العلمانية رسالة ماجستير من جامعة أم القرى.

-العفاني د / سيد العفاني.

٣- أعلام وأقزام في ميزان الإسلام دار ماجد عسيري للنشر والتوزيع.

- القرضاوي د / يوسف القرضاوي.

٤ – الإسلام والعلمانية وجها لوجه مكتبة وهبة ط.٧ ١٩٩٧م.

-القوسي د/ سليمان بن مفرج القوسي.

٥ –الموقف المعاصر من المنهج السلفي في البلاد العربية.ط. دار الفضيلة.

- زكي د/ زكي نجيب محمود.

٦ –أفكار ومواقف ط. دار الشروق ط٢ ١٩٨٦م.

٧- الشرق الفنان ط. دار القلم وزارة الثقافة والإرشاد القومي.

٨- جابر بن حيان سلسلة أعلام العرب٣ الجمهورية العربية المتحدة ط. مصر.

٩ – رؤية إسلامية ط٣ ١٩٩٣م دار الشروق.

١٠ – عربي بين ثقافتين ط. ٢ دار الشروق ١٩٩٣م.

١١ – عن الحرية أتحدث ط. دار الشروق.

١٢ – قشور ولباب ط. دار الشروق.

١٣ – قصة عقل ط. ٢ دار الشروق ١٩٨٨م.

١٤ – قيم من التراث ط. دار الشروق ٢٠٠٠م